من روائع أدب الغرب

الخـــلود L'Immortalité

لشاعر الحب والجمال الفونس دى لامرتين

ترجمة السيد صميم نفكجى

أحبا فبادلته حبه ، فراحا يرشفان أكؤس الغرام تحت ظلال الأشجار الباسقة .

فى أفياء الأدواح المنتشرة غنى لها لحن غرامه . فسمعه الطير على غصنه ، وأنصت له العصفور على فننه . اختلسا النعيم ساعات معدودة . حتى رمى الدهر سهم التفرقة ، فسافرت بعيدة عنه إلى باريس . انتظر كتابا منها يطمئنه على صحتها يرجع الأمل إلى صدره ، وإلى فؤاده أشعة الحياة . ولكن ساعى البريد اتاه بكتاب فيها . مسكينة ؟ ! أماتت «جولى» . أو يموت من عاش لأجل الحب ؟ لم يصدق عينيه . سار يخبط خبط عشواء ، يردد ألفاظها ، يقف الساعات الطوال مكانه يرجع أنشودة غرامها .

إنها أمل رحل . وحب مقيم .

نظم قصيدته « الخلود » L'Immortalité فكانت قطعة من قلبه الملتهب ، ونشيدا لفؤاده المضطرب .

قضت «الغير» « كما يدعوها» نحبها . فدبت إلى جسم «لامرتين» يد المرض .

كان فى ريعان الشباب . ظن نفسه أنه على طريق الآخرة يسير . فلذا جاءت قصيدته « الخلود » جامعة لشتى معاني الفلسفة ، والحب والجمال ، والخلود ، والحياة والموت .(١)

إلى جولى

شمس حياتنا اصفرت وهى فى فجرها . ترسل على جباهنا الذابلة ووجوهنا المنهوكة المتعبة أشعتها المضطربة ، وأضواءها الحائرة ، التى تغالب طلائع الظلام وتناصب هواجه . الظل يمتد ، النهار يموت ؛ كل شىء يزول ، وكل شىء يفر ويحول .

كم يهلع المرء لهذا المنظر الرهيب ويرتجف ! لشد ما يتراجع وهو راعن الأوصال مضطرب الفؤاد عن شاطىء الهاوية الماثلة أمامه ! بل لكم يخفق قلبه الضعيف ، إذ ينصت من بعيد لتلك الأنشودة المظلمة !

تلك أنشودة الموت ، مازالت تتردد فى أعماق صدره ، وتنتشر فى أنحاء نفسه . وتلك الزفرات المتصاعدة والتنهدات المرسلة ، والانات المخنوقة ، والأنفاس المنحشرجة ، لهى آهات الحبيب ، وزفرات الخليل ، وانتحابات الولهى ، تضطرب وتتراجع ، تتقدم وتتأخر ، حول سرير الموت .

الناقوس الصغير مازال يرسل الهمسات ، ويعلو بالخفقات . أصواته التى تطويها معالم الفضاء تنبىء الأحياء أن شقياً باتساً رحل ، ومكدوداً تاعساً إلى هوة القبر نزل

أحييك أيها الموت . أيها المنقذ السماوى ، سوف لا تظهر أمام ناظرى بهيئتك المرعبة ، وبزتك الموحشة ، وطلعتك المشؤومة . إن يمينك سوف لاتشارفنى بمرهف ماضيك ، إنى لا أرى تجهم وجهك ، ولا أقرأ فى عينيك معالم الجريمة والخيانة ، فأنت الذى تنقذنا من آلامنا ، تخفف من أحزاننا ، تأخذ بيمنانا لتقودنا إلى حيث الرب الرحيم ، تستعدى رحمته على نكباتنا ، وتستنزل رأفته على ويلاتنا .

إنك لاتميت بل تنقذ ؛ إنك لا تهلك بل ترحم ؛ إن يدك يارسول السماء تحمل إلى نبراسا إليها ، يوم تغمض عيناى الكليلتان أجفانهما . تأتى تحت الأضواء المنعشة لتبلل ناظرى ، وتغمض عينى ، والأمل إلى قربك يطفر ، يظلله الايمان ، تشده التقوى ، فتفتح أمامى عالما رائعا

إلى أيها الموت . أقبل واكسر عنى أغلال الجسد . بدد عن نفسى قيود الأوصال . افتح باب سجنى واكسر مغالق حبسى وأعرنى أجنحتك الرفراقة ، وقوائمك الهفهافة . ماذا يمنعك عنى ؟ . لماذا تتأخر ؟ ماذا يعيقك عن زيارتى الأخيرة ؟ تقدم إلى . فانى أريد أن أرمى بنفسى نحو ذلك الكائن المجهول ، حيث أعرف سر حياتى ومماتى

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى كتابه (رفائيل)

كان أعظم حظاً من أجزاء فلسفته الأخرى وكان نصيبه من الدراسة والبحث أكبر منها جميعاً يفيد أن هذه الدراسات على اختلافها ناقصة وغير مقنعة . فبعضها لا يخرج عن ترجمة حرفية أو ملخص غير كامل لآراء ابن سينا . وبعضها يعنى بهذا الفيلسوف لدى اللاتينيين أكثر من عنايته به لدى العرب ، ويفصل القول فى أثره فى الغرب تاركا جانباً ماكان من أمره فى الشرق ، وأغلبها ينسى الأساس اليونانى الذى بنى عليه فلسفته عامة وأبحاثه النفسية خاصة . وسنتتبع هنا آراءه النفسية المختلفة مبينين أولا صلتها بالوسط الذى نشأ فيه وبالأفكار الاسلامية على العموم وباحثين ثانياً عن منابعها لدى فلاسفة اليونان وأطبائهم ، ومظهرين أخيراً ما كان لها من أثر فى الشرق والغرب .

ابراهيم مدكور

أى شيء فصل عنى ؟ من أنا ؟ ومن سأكون ؟ .

أموت ولا أعرف ماهية الحياة وسر الوجود ، وأذهب وأنا أجهل ما البقاء ! ما أنت أيتها الروح المبهمة ، أيها الطيف المجهول ؟ أيها السر الغامض . قبل أن أردى فى لحدى أريد أن أسألك : أية سماء بحقك تسكنين ؟ وفى أى عالم تعيشين ؟ وأى قدرة إلهية رمتك إلى هذه الكرة المحطمة ، حيث عالمنا الضعيف الهشيم . وأى يد إلهية قذفت بك إلى سجنك الفخار ، واعتقلتك فى محبس الطين ؟ وأى سر عجيب ربطك بالجسد وربط الجسد بك وأى يوم تنسلخ الروح فيه عن المادة ؟ وتصبح عالما بنفسها ، تقوم بأودها دون أن تعتمد على الجسد البالى والجسم الفانى ؟

إلى أين تذهبين ؟ أتتركين الأرض الجميلة لترحلى إلى قصر منيف ؟ هل نسيت كل شيء ؟ أم لا زلت تذكرين ؟ إن هناك القبر ، فهل ستبعثين إلى عالم مجهول جديد ؟ أتعودين إلى حياة أشبه وعالم أحكى وأمثل إلى حجر الله ، حيث رأيت أشعة الحياة ولمست معالم الوجود . أم إنك ستفصلين من كل شيء تدب إليه يد الفناء ؟ وتسير فى عروقه دماء البلاء

أستنعمين بمناعم الخلود الأبدية وتلعبين فى الجنان غير البالية ؟

نعم ، هذا أملى الوحيد يا نصف حياتى . تلك هى الأمنية التى بها رأت الروح التى تضيء جوانب صدرى طرق الحياة . وكانت عزاء نفسى المتألمة التى قضى عليها بالسجن فى هذا الجسد البالى . شهدت ربيع حياتك يرحل وألوانه البهيجة تموت وتذبل ، وزهوره المتلألئة تسير نحو هوة الفناء . والحزن ما زال يفتك بى ، والموت يدير منى الخطوات وأنا أجود بالنفس الأخير ، ترتسم على شفتى الابتسامة ، وتنهمل من عينى دموع الفرح ، مقدماً إليك كلمات الوداع الأخير ، منتظراً نظراتك لتشع فى عينى قبل أن يغمضهما الموت

أولئك الذين تعلقوا بأذيال المادة ، وكانوا أشبه بالقطيع ، يسيرون وراء راعيهم « أبيقور Epicure » سيهتفون « يا له من أمل كاذب خلب قد مضى ورحل ، عند ما يرون معالم الدنيا قد قضت وانتهت

وذلك العالم الذى ما زال يفحص أسرار الطبيعة يود كتشافها ، يدرسها فى زاوية مهملة تسمى العقل . سيقطع الدهر فى فهم كنه المادة ، يعيش فى عالم الملموسات ، يغفل عن الروح ولكنهم سيهتفون به :

أيها الأحمق ، أى كبر سخيف يكسوك ؟ انظر حولك ! تأمل بناظريك ! كل يبتدىء لينتهى ، وكل يدب نحو الفناء دبيبه . إن سيرك نحو هدف ممثل ، وإلى غاية نهائية هي « هوة الموت »

انظر إلى الحقل وقد علت أوراقه صفرة الذبول ! ألا ترى الزهرة تتعب وتضمحل ثم تلفظ الأنفاس ؟ ألا تشهد فى هذه الأحراج الملتفة تلك السدرة العظيمة بجبينها الشامخ ونظراتها إلى العلياء كيف هوت تحت ثقل السنين ورزحت تحت أعباء الدهر ، ثم امتدت على العشب النضير المنتشر على بطحاء الأرض ؟

ألا تنظر الأنهار تنضب فى مجاريها ، والبحار تجف فى قيعانها ، وهذا الكوكب المتلألىء فى السماء أخرت يد الزمن ولادته ، وهذه الشمس ، وما أشبهها بنا ! إنها تسير الى الفناء والعدم ، وفى السماء حيث الأموات ينتظرون يوماً به ينعمون .

تأمل حواليك الطبيعة . مرت الأجيال فتكاثفت أتربتها . وتحولت الأعوام إلى ذرات غبار تناثرت فى فضائها

إن الزمن بخطوة واحدة يذل من كبريائك ، يخمد عزة نفسك ، ويطفىء جذوة اشتعالك ، يقبر فى جوفه العميق الحوادث ، ويرمس فى لحده المخيف الأيام .

ولكن الانسان ، الانسان وحده ، المجنون الأكبر فى هذا الكون ! إنه ليظن أن القبور لتسعد بسكانها ، ويأمل أن يعيش الحياة ثانية فيها ، فيظفر طياتها بالحياة أثر الحياة ، ويحلم بالأبدية والخلود . وهو كريشة فى مهب زوبعة العدم الهائجة

ليجبكم غيرى ، يا عقلاء الأرض ، يا مدعى الفلسفة . اتركوا لى خطأى . فأنا أهوى فلذا آمل ، فاذا كان الخلود خطيئة لا توجد مرسومة إلا في بعض العقول دون أخرى ، فكم هذه الخطيئة عزيزة لدى !

اتركونى أيها العقلاء أنعم بجانب ضلتى ، إنى أحب أن أتمنى وأن أعلل الأشياء ، إن عقلنا الضعيف المضطرب يتحير . بلى إن عقلنا ليمسك عن الكلام أمام حججكم ، ولكن الأدراك يجيبكم

أما أنا ، عند ما أرى الكواكب تسبح فى السموات العلى ، والنجوم تنحرف عن طرقها المدبرة وسبلها المقررة ، وأشهد النجم فى حقول الأثير اللانهائية يناطح النجم ، والكوكب

يركض أثر الكوكب ، فأنصت لصراخ الأرض ، واستمع لسماع صرخاتها المتوالية تتنهد ، وقد شق جوفها ، ومادت كرتها هائمة تضطرب ، بعيدة عن السموات وشموسها . تبكى الانسان المحطم ، ابنها العانى ، المسرع فى طريق الموت الذى هام فى حقول الأبدية المظلمة ، عندها أكون الشاهد الأخير ، والحاضر الفرد ، وقد احتاطتنى المدلهمات ، وأمسك بيدى الموت إلى جوف الظلمات . وبالرغم من ضعفى سأنهض واثباً ، لا خوف يدب إلى قلبى ، ولا ذعر يمسك على فؤادى ، أفكر فيك ، أرقب بفارغ الصبر عودة الفجر الأبدى ليضىء العالم المحطم ، حيث أرقب لقاءك وأرجو زورتك

كنت تذكرين دائماً رحلتنا الهنيئة وسفرتنا الرغدة ، يوم نشأ غرامنا الخالد وبدأ حبنا المقيم ، فكنا ننعم على ذوائب الصخور القديمة التى شهدت مجد الأولين حيناً ، وحينا على ضفاف البحيرة الساكنة ، نرقب أمواجها الهادئة ، ونستمع الى أصوات مياهها العذبة ، فتحمل نفوسنا على جناح النعيم حيث نسلو العالم الصاخب .

كنت أخوض معك الظلماء التى أنتجها التفاف الأشجار . وأسير جنبك تحت الظلال الوارفة والأفياء المنتشرة ، نهبط الربى لنصعد الجبال . لحظة سعيدة مرت أصغينا خلالها لموسيقى النجوم الغامضة ، وأصخنا بسمعنا إلى غناء الكواكب الجميل ، لاصخب يتخلله ولا ضوضاء تمسك ألحانه

كم دهشنا لهذه الصورة الجميلة التى تغطى العالم ، عدنا أدراجنا إلى المعبد ، خشعنا أمام الضوء الخافت الذى يرسل أشعة متضائلة تبعث إلى القلب الرهبة ، وإلى الأجسام الرعشة . سكرى من جمال الوجود ، كنت ترددين النظر بين الأرض والسماء ثم تهتفين :

« إلهَ الغيب ، هذه الطبيعة مأواك ، عند ما تتأمل بنظراتنا صنع يديك ، الروح تراك متمثلا فى كل صورة من إبداعك ، فهذه الدنيا صورة كما لك : النهار نظرتك ، والجمال ابتسامتك . فى كل مكان القلب يعبدك ، والنفس ترجو أن تدب فيها الأمل وتنفخ طياتها روح العمل

« أيها الخالد اللانهائى القدير الجليل ! إن قلمى ليعجز عن وصف اسمك وكتابة حسناتك ، والروح التى حبيتها بنفختك تمجد عظمتك حتى تخمد فيها الحركة ، وتسكن بين جنباتها الخفقات

« أيها الإلهَ القدير ! إن الروح لتخضع لحكمتك العليا وأنشودتك المثلى . تريد أن تطفر نحو علاك ، وتثب إلى سمائك . إنها لتشعر أن الحب هو ختام حياتها ، فهى تحترق لمعرفتك وتلتهب لمرآك

كذلك كنت تقولين وبهذه النفثات كنت تناجين . وقلبانا يجمعان التنهدات ، يمزجان الأنات ، يصعدان الزفرات ، يرسلانها صوب هذا الكائن العظيم الذى يدل عليه هوانا ، ويشهد لعظمته غرامنا ، نخشع بصلاتنا أمامه ، نحمل طيات قلوبنا محبته واحترامه ، يرسل إليه الفجر تخشعاتنا وتضرعاتنا ، ويرفع نحوه المساء تذللاتنا وابتهالاتنا ، وعيوننا السكرى بجمال ما صنعت يداه ، تتأمل بين الفينة والفينة الأرض حيث نقيم ، والسماء مسكنه .

أواه ! فى هذه اللحظة والروح على وشك الفرار تريد البعاد ، تود تحطيم السجن . هو ذا الإله يطل علينا من عليا سمائه ، يستجيب دعاءنا ، ينظر إلى شكوانا نظرة عطف تنقذ كلينا .

إن روحينا تريدان أن ترجعا إلى حيث وجدتا النور . واستشفتا الضياء . تريدان أن تقطعا معاً خضم هذا العالم إلى النهاية المحتمة ، يداً بيد ، ووجهاً إزاء وجه . حتى تصلا على جناح الحب إلى النهاية . فهى تصعد كضوء النهار إلى أن تنتهى إلى حيث الاله الخالد ، وترتمى تحت أقدامه متعانقة باكية .

هذه الأفكار : أترانا تغشنا وتخدعنا ؟

أواه ! أللعدم خلقت أرواحنا ؟ أللفناء كانت حياتنا ؟ أتشترك الروح فى مصير الجسد إلى العدم ، ويلتهمها جوف القبر الغامض كما تلتهم الضوارى اللحم ، ويضيع بين ترابها العظم ؟ أتعود إلى التراب الذى منه نشأت ، أم تطير فى الأجواء ولا تستحيل إلى هباء ؟ أم تراها تتبدد فى الفضاء ، كما تتبدد صرخات صوت قذفته عروس حسناء ؟

بعد حسرة ضائعة ، وزفرة راجعة ، وتوديعة باكية ، أترى يفنى الحب ، ويطوى الدهر فى صفحات كتابه غرامنا ؟ أواه ؟ ! إن هذا السر العظيم لا يعرف كنهه إلا أنت . ألا انظرى موت من أحبك ، الغير ، أجيبى . ردى على !

مصطفى لطفى المنفلوطى